الحلقة الأولى

آبـــــــاره تمـــلـــؤهـــا الـــســـمـــوم

قضـــاء سنـــجار.. تـــخمة في الأمـــراض وأزمـــة في الميـــاه

المحطة الأولى مع إلياس

"سأستدين ما يقرب من (30) مليون دينار (24الف دولار)، لشراء الكلية و إجراء العملية"، هذا ما أخبرني به إلياس خضر خلال مكالمتي الأخيرة معه. من ينظر إلى إلياس البالغ خمساً وعشرين سنة؛ وهو يبدو في كامل صحته سيستغرب حين قراءة تقريره الطّبي، قصورٌ كلويٌ مزمن؛ المرحلة النهائية بدرجَة عجز شديدة؛ هي؛ تسعون بالمئة. ينكمش نحو بطنه، وأداةٌ للحم الأبواب والشبابيك المنزلية بين يديه في محله الصَغير، الذي تحول من مصدر رزق إلى حاسبة ترقم المبالغ التي يجب أن يحصدَها لمراجعة الطبيب وشراء الأدوية.

العمل مدة تسع ساعات في النهار لم يعد مقبولاً لجسد ينتفخ وَرماً بين الحين والآخر، لأشهر كان يتناولُ أدوية للحساسية وأمرَاض أخرى بسبب سوء في التشخيص. بعد أن أوقعته الآلام أرضاً في إحدى الليالي أسرع والده بنقله خارج القضاء متوجها إلى مستشفى آزادي في محافظة دهوك.

□ الموصل / نارين شمو

التهديد بشهادة وفاة

بقاؤه في المستشفى مدة ستة عشر يوماً، وغسل كليته عدة مرات، لم يضمنا له شفاءً تاماً، إذ كان عليه مراجعة مستشفى لزرع الكلْية ثلاث مرات في الأسبوع خلال الأشهر الأولى من مرضه؛ ويومي الأحَد والأربعاءَ من كل أسبوع في المرحلةَ الحالية. أما شرين، المرأة التي أخذها الفشل الكلَوي من اهتماماتها ومسؤولياتها، بوصفها أماً، فحالتها السيئة منعتها من التحدث إليّ، فما كان أمامي إلا الاستماع إلى زوجها إسماعيل، وهو جالس إلى جانبها في منزل من الطين الأسمر، أخبرني أن مرضها جعل من جميع أفراد أسرته تعساء؛ و بفضل ما يجمعه الجيران والخيّرون من نقود يتمكن من أخذها الى المستشفى في محافظة دهوك أسبوعياً، واختنق قائلاً: الطبيب طلب مني أن أذهب لعمل شهادة الوفاة إن تخلفت عن إحدى مراجعاتها.

رأي الطبيب المشرف

أربعة مرات توجهتُ الى مستشفى زرع الكلية الواقعة بجانب مستشفى آزادي العام في محافظة دهوك؛ لألتقي بمدير المستشفى والطبيب المشرف على حالة الياس وشرين، ولم أتمكن من رؤيته لأسباب مختلفة، بعد الاتفاق معه، توجهت إلى عيادته التي اكتظت بمرضى يعانون الفشل الكلوي ومرادفاته. ملامحُ ولهجة ٦٠٪ من المراجعين كانت لأهالي سنجار المميزة عن باقي اللهجات. خلال اللقاء أكد لي أنه يوجد خياران أمام الياس وشرين، إما أن يبقيا على غسل الكلية مدى العمر أو عليهما إجراء عملية زرع الكلية. وأشار إلى أن الماء مسببٌ رئيسٌ لمثل هذه الأمراض، إذا احتوى على ترسبات المعادن، فهو يسبب حصى في الكلية، وإن احتوى على جراثيم ومكروبات تؤثر في الأمعاء والجهاز الهضمي.

توتة توتة مارح تخلص الحدوتة

إلياس وشرين ليسا الوحيدين اللذين يعانيان العجز الكلوي، بل هناك إبراهيم ودلفين و نجلاء و العم حسن والطفل هشام، فضلاً عن (٢٢،٠٠٠) من المصابين بهذا المرض، وأمراض أخرى كالتهاب الكبد الفايروسي، والأمعاء والمجاري البولية، وتَكلُس الكلية، واحمرار والتهاب الجلد والعيون، والتيفوئيد والبارا تيفوئيد والتسمم، وداء البروسيلا (حُمّى مالطا)، وكذلك الإسهال بالنسبة للمرضى الصغار.

المشكلة وتأريخها

قضاء سنجار (أو شنكال باللغة الكُردية) المعروف بتسمية (جبل سنجار) الواقع شمال غرب العراق؛ والتابع إدارياً إلى محافظة نينوى، يعاني مشكلة المياه منذ ما يقرب من نصف قرن، حاله حال العديد من مناطق العراق. الناس في السابق كانوا يعتمدون في عيشهم على مياه العيون في الشرب والاستخدام، وسقي الحيوانات والزراعة، وأصبحت الموارد المائية المتاحة للاستخدام في تناقص مستمر؛ نتيجة لزيادة معدلات الطلب المتزايد للمياه. في منتصف السبعينات من القرن الماضي تم تجميع كل ٦ إلى ١٠ قرى في مجمعات طينية وبطرائق قسرية بأمر من النظام السابق، وتركت تلك المجمعات مهملة من الحكومة إلى اليوم، من يدخلْها يجدْها تفتقر إلى أبسط مستلزمات الحياة.

محطات التصفية والتوزيع

أغلبية التجمعات السكانية تفتقر الى بنية تحتية لتصفية المياه أو شبكات التوزيع من المصدر الى البيوت، هنالك محطة تصفية مياه وحيدة في عموم القضاء، وتخدم

٣٥٠ الف نسمة لاتصل اليهم مياه الشرب عبر الشبكات التي انتهى عمرها الافتراضي

المياة مليئة بالكلس وتحمل معها التيفوئيد والامراض المعوية والتهابات المجاري البولية

المياه في طريقها للنفاد

من جانب آخر، المياه الجوفية التي هي المصدر الوحيد للمياه في سنجار في طريقها الى النفاد بسبب استمرار الجفاف والضخ المتزايد من مكامن المياه الجوفية، وسوء إدارة الموارد المائية، إذ شهدت السنوات العشر الأخيرة انخفاضَ مناسيب المياه الجوفية أكثرَ من ٥٠ متراً في بعض المناطق. المهندس مراد إسماعيل حسن أحد أهالي ناحية الشمال في قضاء سنجار، والمقيم حالياً في ولاية تكساس في أميركا، يذكر في رسالته لنيل شهادة الماجستير من جامعة نورويج (Norwich) عام ٢٠١١ عن مشروع (تطوير المياه في ناحية الشمال) أنه كلما قلّت كمية المياه الجوفية زادت الخطورة، ويشير الى صعوبة العيش في سنجار بعد ١٤ سنة من الآن إذا استمر الوضع على هذه الحال جرّاء شح المياه نتيجة جفاف الموارد الطبيعية.

الأطباء والمتخصصون

تنقلت ما بين خمسة مجمعات سكنية، وعدد من قرى قضاء سنجار وخلال زيارتي الى بعض المراكز الصحية حصلت على أرقام كبيرة جداً لعدد المراجعين والمرضى لشهر أيار/ ٢٠١٢ تلك الأرقام دعتني إلى مقابلة عدد من الأطباء والمتخصصين من سكان سنجار لمعرفة حقيقة هذه الإحصائيات. فالغالبية عَزا هذه الأمراض إلى سوء نوعية المياه التي يشربها ويستخدمها معظم الأهالي. ذكر د. ماجد خلف حمو مدير قطاع الرعاية الصحية الأولية في سنجار أنّ معظم أهالي سنجار يعتمدون على مياه الآبار الارتوازية والسطحية المتوافرة في المنازل، وهذه المياه غير صحية مطلقاً، تختلط بالمياه الثقيلة لقربها من قساطل المرافق الصحية، وتحتوي على كمية كبيرة من الكلس، وهكذا تنقل بعض الأمراض، مثل التيفوئيد والأمراض المعوية، والتهابات المجاري البولية من خلال الشرب، وكذلك استخدامها يسبب الحساسية والأمراض الجلدية. لا نستطيع أن نجزم أنها السبب الرئيس في الفشل الكلوي؛ لكنها بالتأكيد سبب مهم وناقل رئيس لهذه الأمراض.

10 % مياه صالحة للشرب

المشكلة العظمى في سنجار: كيفية القضاء على المياه غير الصالحة للشرب، إذ أن نسبة من يحصلون على مياه صالحة للشرب لا تتعدى ١٠٪ من السكان في أعلى تقدير. أوضح الدكتور عدنان محمد حسين مدير المركز الصحي في مجمع اليرموك: أن المياه الملوثة تسبب الكثير من الأمراض كالتهاب الأمعاء والتيفوئيد وحمى المالطا، وقد تسبب الرمل والحصى في المثانة والكلى، وأضاف نقوم بتوزيع قطع الكلور على المواطنين إلا أن ذلك ليس حلاً للمشكلة، بل يجب توفير المياه الصالحة للشرب عبر أنابيب الإسالة. وفي المركز نفسه ذكر المعاون الطبي حسن حيدر حجي أن نحو ٨٠٪ من المرضى الذين يراجعون المركز الصحي يعانون إصابات جراء تلوث المياه. وأكد إبراهيم عزت، مساعد مختبر في مركز خانصور الصحي، أن الفحوصات العامة التي عملناها من ١-١٥/ أيار، للإدرار أثبتت أن شخصين من كل ثلاثة مرضى مصابان بحالة الكريستالس (الرمل بالعامية)، و ٢٢ فحصاً من مجموع ٢٧ اتضح أنهم مصابون بحمى مالطا والتيفوئيد الذي ينتقل عبر المياه الملوثة بفعل بكتيريا خاصة، وأضاف أن حالات الإسهال لا تعد ولا تحصى، ويعتبر الأطفال أكثر الفئات عرضة للإسهال نتيجة إعداد الحليب الصناعي بالمياه. وفضلاً عن ذلك فإن مصادر طبية ذكرتْ أن الإسهالَ، ومنْ ثم الجفاف يقضيان على حياة واحد من كل أربعين طفلاً في قضاء سنجار سنوياً.

نقص في الكوادر الطبية

سبعة فقط من مجموع ثلاثة وعشرين مركزاً صحياً في عموم قضاء سنجار، مجهزةً بمختبرات تحليل متواضعة، وهذه المراكز تعاني قلة الأجهزة والمحاليل، مما يصعب من مهمة الكشف عن الحالات المرضية إلا في مراحل متأخرة، يكتفي المرضى بأخذ مسكنات تهدئ من أوجاعهم. مستشفى سنجار العام، الوحيد في القضاء، يعاني نقصا في الكوادر الطبية والحال نفسها في المراكز الصحية. قال حسن حتو المعاون الطبي في مستشفى مجمع الجزيرة (سيبا شيخدر): إن أغلب الحالات التي تصلنا يتم نقلها الى مستشفى سنجار العام في مركز القضاء الذي يبعد ٤٥ كم عن المجمع، لافتقار المركز إلى مختبر تحليل وكادر طبي. حديث مراد عبدي معاون مدير مركز اليرموك الصحي حمل تشابهاً في الاحتياجات: اسبوعياً توجد ٢ إلى ٣ حالات ولادة في المنطقة لهذا نحن بحاجة إلى طبيبة نسائية، و كذلك إلى أجهزة طبية أساسية كالسونار، وجهاز تخطيط القلب، وأجهزة مختبر متطورة.

كميات كبيرة من البكتريا

تلك الإحصاءات دعتني لأخذ ستّ عينات من المياه من مناطق مختلفة من شماليّ وجنوبيّ قضاء سنجار، وتحليلها بكتيريا في مختبر دائرة البيئة في محافظة دهوك، والنتيجة كانت كما توقع الخبراء تماماً، واحدة منها فقط صالحة للشرب. تحليلات البكتيريا أو ما يسمى (i-coli) بينت وجود هذا النوع من البكتيريا بكميات كبيرة في المياه. وهذا يعني أن المياه ملوثةً، واحتمال وجود فيروسات أكثر خطورة في هذه المصادر. ويشير أيضاً إلى تداخل فضلات الحيوان والإنسان مع المياه، وهذا يُسبب أمراضاً؛ بعضها تُودي بحياة الإنسان. وفي الوقت نفسه كنت بحاجة إلى إجراء فحوصات اختبارية كيميائية للتأكد من وجود عناصر (الزرنيخ والباريوم والكادميوم والرصاص والنترانت والنتريت واليورانيوم) للاشتباه بوجودها في الكثير من الآبار الارتوازية في مناطق متعددة من قضاء سنجار، إلا أن الأمر احتاج إلى تصريحات منظماتية وحكومية تتكفل بتبني الاختبارات، وكذلك صعوبة الحصول على موعد مناسب لإجراء التحليلات في المختبرات الحكومية التي بادرت بالموافقة، وهكذا تأجلت الفحوصات إلى نهاية شهر تشرين الأول.